مكتبة المسجد النبوي الشريف

د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

«إذ كان طلب العلم من أفضل الأعمال، فإنه أفضل كثيرًا لاسيما إذا كان في المسجد النبوي، لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره)[1]. (رواه ابن ماجه وأحمد).»

كانت الكتب قبل اختراع الطباعة غالية الثمن، لا يقتنيها إلا الأغنياء، لأنها كان مخطوطات مرتفعة التكاليف، ولذلك قام القادرون من محبِّي العلم بإنشاءِ المكتبات، يجمعون فيها الكتب، ويفتحون أبوابَها للراغبين في القراءة والبحث. وقامت هذه المكتبات بالدور الذي تقوم به معاهد العلم والجامعات في الوقت الحاضر. ونظرًا لأن الإسلام دين سَماوي، فقد حرص منذ بزوغه الأول على الاهتمام بالكتب، وبالكلمة المكتوبة بصفة عامة. وعلى المرء أن يتأمل المكانة التي حظي بها القرآن الكريم في الإسلام، لكي يُدرك مدى عمق هذه الحقيقة. واعتبارًا من القرن التاسع الميلادي، كانت هناك إشارات عديدة إلى المكتبات في العالم الإسلامي، وذلك على الرغم من وجود إشارات أيضًا إلى أن بعض المكتبات تعرضت للتدمير خلال الحروب العديدة، التي دارت رحاها. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن النساء لم يكن مستبعدات من هذا العمل، ويُحدثنا المؤرخ وكاتب السير ابن خلكان، بأن سيدة زنجية تُدعى (توفيق) كانت المسؤولة عن إعارة الكتب في مكتبة بغداد للوراقين البارعين. وقد اهتم المسلمون بأبنية المكتبات العامة التي كانت تُعدُّ لاستقبال الجماهير. وكان البناء مزوَّدا بحجرات متعددة، تربط بينها أروقة واسعة، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب، وكانت هناك أروقة للاطلاع، وأخرى للنسخ، وبعضها لحلقات الدراسة. وشملت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يذهب إليها المطالعون للترفيه. وكانت لهذه المكتبات فهارس منظمة، تتناول عناوين الكتب وأسماء المؤلفين.

تعد المكتبات الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي يفخر بها الإسلام، والتي كان لها دور كبير جدًّا في نشر المعرفة تعدى تأثيرها المسلمين أنفسهم فانتقلت آثارها إلى ديار الغرب [2]، وقد عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، وانتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء والمدارس والكتاتيب والجوامع، وكما وجدت في عواصم الإمارات وجدت في القرى النائية والأماكن البعيدة، مما يؤكد على تأصل حب العلم لدى أبناء هذه الحضارة، وكان من جملة ما عرفته الحضارة الإسلامية من مكتبات، المكتبات الأكاديمية، وهي من أشهر المكتبات في الحضارة الإسلامية، ومن أهمها مكتبة بغداد (بيت الحكمة). وانتشرت المكتبات الخاصة في جميع أنحاء العالم الإسلامي بشكل واسع وجيد، ووجدت المكتبات العامة، وهي مؤسسات يحفظ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها؛ ليكون في متناول الجميع من كافة الطبقات والأجناس والمهن والأعمار والثقافات المختلفة، ومن أمثلتها مكتبة مسجد قرطبة التي أسسها الخليفة الحكم المستنصر الأموي سنة 350هـ/ 961م [3]. ووجدت المكتبات المدرسية، إذ أولت الحضارة الإسلامية اهتمامها لإنشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعًا، وألحقت هذه المكتبات بالمدارس، وقد انتشرت بشكل عام في مدن العراق وسوريا ومصر وغيرها. ووجدت مكتبات في المساجد والجوامع، وهي البداية الأولى للمكتبات في الإسلام، حيث نشأت المكتبات في الإسلام مع نشأة المساجد، ومن أمثلتها مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة الجامع الكبير بالقيروان، وكان الإنفاق على المكتبات من ريع الأوقاف من الدولة أو من أهل الخير[4]. هكذا كانت نظرة الإسلام والمسلمين للمكتبة "غذاء للعقل، ومكانًا للعلم، ومركزًا للبحث".

التأسيس

تعد مكتبة المسجد النبوي الشريف مركزًا من مراكز العلم بالمدينة المنورة. ومن أقدم المكتبات في المدينة المنورة. وقد ذكر صاحب كتاب خزائن الكتب العربية أن مكتبة المسجد النبوي تكونت قبل حريق المسجد النبوي في 13 رمضان عام 886هـ/ 15 نوفمبر 1481م حيث احترقت خزائن المصاحف والكتب في ذلك الحريق وكانت تضم الخزائن كتبًا نفيسة ومصاحف عظيمة [5].

أما في العهد السعودي فقد تأسست المكتبة عام 1352هـ/ 1933م باقتراح من السيد عبيد مدني حينما كان مديرًا للأوقاف في المدينة المنورة، وكان أول مدير لها هو السيد أحمد ياسين الخياري. وبالمكتبة بعض الكتب التي يعود تاريخ وقفها على المسجد النبوي قبل تاريخ إنشاء المكتبة مثل مكتبة الشيخ محمد عبد العزيز الوزير التي أوقفت عام 1320هـ/ 1902م، وهي من الكتب التي أدخلت في المكتبة بعد تأسيسها، وكانت هناك كتب في الروضة الشريفة على بعضها تاريخ متقدم عن تاريخ تأسيس المكتبة. وتوجد المكتبة حاليًا داخل المسجد النبوي للاستفادة من المكتبة والخدمات المقدمة فيها.

وصاحب اقتراح إنشاء المكتبة هو السيد عبيد مدني المولود عام 1324هـ/ 1906م، جده السيد محمد مدني، الذي تولى خلافة قاضي المدينة، وأمين ديوان المحكمة، ذا مال وأعوان وعبيد، وهو الذي بنى قصر الصالحية بالشونة وسكن فيه مع أولاده، وبعد وفاته سكنه أولاده الثلاثة إلا السيد عبد الله والد السيد عبيد فإنه سكن دارًا بسويقة المعروفة ببيت المفتي، وتزوج السيد عبد الله من شقيقة السيد زكي البرزنجي، ابن السيد أحمد البرزنجي، وبنى السيد عبد الله الفندق الكبير خارج باب المجيدي، به أكثر من ثلاثمئة غرفة لإسكان الحجاج، كما نزل في هذا الفندق الكثير من الشخصيات البارزة من الأتراك في مقدمتهم أنور باشا وجمال باشا وزير الحربية، وطلعت باشا وزير المالية. واشتهر السيد عبد الله بكرمه وكان بساطه ممدودًا لكل غاد ورائح.

أنجب ابنه البكر السيد عبيد وفرح بمولده وأنفق الكثير يوم ولادته، وبعد سبع سنوات من عمره توفي رحمه الله. وبقيت والدته في البيت بعد وفاة والده، ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1333ه/ 1914م، أمر حاكم المدينة العسكري فخري باشا بإجلاء أهل المدينة للشام والأناضول خوفًا من انقطاع الأرزاق من الشام، وخوفًا من ميل الشريف مع الحلفاء صار سكان المدينة يسافرون تباعًا، وبقي السيد عبيد مع والدته بالمدينة وانتقلا لقصر الصالحية، حيث احتضنته أمه الشريفة صفية برزنجي التي رفضت الخروج في رحلة التهجير الجماعي لأهل طيبة. والتحق السيد عبيد بالمدرسة الفيصلية، ولم يواصل دراسته في المدرسة بل أخذ في الدرس بالحرم الشريف، وكان مولعًا بالأدب فتتلمذ على يدي المرحوم الشيخ العمري؛ فكان الشيخ يأتيه للبيت فيدرس عليه، ثم إن السيد عبيد حُبب إليه بيع الفندق حيث كان يؤجره لبعض المدرسين بأجرة طفيفة، واشترى بثمنه دارين بمصر إحداهما له والثانية لأخيه السيد أمين مدني، ومكث الأخوان وأقاما بها، ولما قام عبد الناصر بثورة الاشتراكية توقفت رواتب الموظفين السعوديين المقيمين بمصر فاضطر السيد عبيد للرجوع للمدينة. وتوفي في شوال 1396هـ/ أكتوبر 1976م بمصر وجاؤوا بجثمانه بالطائرة، وقد صلى عليه في المسجد النبوي ودفن بالبقيع. وترك ديوانًا شعريًّا مطبوعًا يزيد على 3 آلاف بيت، كما ترك موسوعة لتاريخ المدينة المنورة تبلغ 12 مجلدًا، إلاّ أنها لم تطبع حتى اليوم.

لقب السيد عبيد بشاعر المدينة وأديبها ومؤرِّخها، حيث عاش ثلاثة عهود مختلفة من الحكم في طيبة، فأدرك أواخر حكم العثمانيين، ثم حكم الهاشميين، كما عاش أكثر حياته في ظل الحكم السعودي الذي دخل المدينة عام 1344هـ./ 1926م. وبرز اسمه في المناصب التي تقلدها كعضوية مجلس إدارة المدينة، ووفدها إلى المؤتمر الوطني بمكة عام 1350هـ/ 1932م، وإدارة أوقاف المسجد النبوي الشريف، وعضوية مجلس الشورى عام 1355-1373هـ، ومجلس الأوقاف الأعلى، ورئيس جمعية الدفاع عن فلسطين، وأسهم في تأسيس جريدة المدينة، ومجلة المنهل. وكانت له اتصالات بالملك عبدالعزيز، والملك سعود، والملك فيصل، رحمهم الله.

أما أول مدير لمكتبة الحرم النبوي الشريف فهو الشيخ أحمد ياسين الخياري، وهو شيخ القراء، وأحد أدباء المدينة المنورة الأفذاذ، ومن مؤرخيها المعروفين. وله عدة كتب مطبوعة، وله اهتمام واسع بالتاريخ وعلى وجه الخصوص تاريخ المدينة الفاضلة طيبة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان رحمه الله حريصًا على اقتناء الكتب والمؤلفات المتعلقة بالمدينة المنورة وتاريخها الحافل. ولد بالمدينة المنورة عام 1321هـ/ 1903م. حفظ في كتاتيب الحرم النبوي في العاشرة من عمره المتون في سائر الفنون، وقرأ شروحها على والده، وتعمق

«عرفت الحضارة الإسلامية أنواعًا متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، وانتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء والمدارس والكتاتيب والجوامع، وكما وجدت في عواصم الإمارات وجدت في القرى النائية والأماكن البعيدة»

«وبالمكتبة بعض الكتب التي يعود تاريخ وقفها على المسجد النبوي قبل تاريخ إنشاء المكتبة مثل مكتبة الشيخ محمد عبد العزيز الوزير التي أوقفت عام 1320هـ/ 1902م، وهي من الكتب التي أدخلت في المكتبة بعد تأسيسها، وكانت هناك كتب في الروضة الشريفة على بعضها تاريخ متقدم عن تاريخ تأسيس المكتبة. وتوجد المكتبة حاليًا داخل المسجد النبوي للاستفادة من المكتبة والخدمات المقدمة فيها»

في دراسة القراءات السبع والعشر والأربعة المتممة لها، وأكمل دراسته في الجامع الأزهر، وأدرج اسمه ضمن علماء الحرم النبوي بعد عودته من القاهرة في أوائل عام 1345هـ/ 1927م، وقام بالتدريس في مدرسة النجاح، واشترك في لجنة الاختبار السنوي لمدارس المدينة المنورة عدة سنوات. وعين عضوًا وسكرتيرًا ونائبًا لرئيس لجنة تنظيم مكتبات المدينة المنورة، ومديرًا لمكتبة الحرم النبوي الشريف، ثم مديرًا لمكتبة المحمودية. كما عين عضوًا في مجلس الأوقاف، وعمل في المحكمة الشرعية بطريق الانتداب للبحث في سجلات المحكمة الشرعية الكبرى عن الأوقاف المغمورة العائدة نظارتها إلى مديرية الأوقاف بالمدينة، وفي الحرم النبوي الشريف مندوبًا عن الأوقاف للإشراف على ترميم أبواب الحرم النبوي. وتجاوزت مؤلفاته الخمسين كتابًا، وهي على وجه العموم تدور حول القرآن وعلومه والتاريخ. وتوفي في ليلة الأربعاء 17 رجب 1380 هـ/ 5 يناير 1961م.

أقسام المكتبة

تضم أقسام المكتبة قاعات المطالعة الخاصة بالرجال، وتقع في الركن الشمالي الغربي من سطح المسجد النبوي، والمدخل السلم الكهربائي رقم (10)، وتحتوي على (358) دولاب، يوجد بها (100.000) كتاب، و(300) كرسي للرواد. وتوجد قاعات المطالعة الخاصة بالنساء وهي خمس قاعات ثلاث منها في مصلى النساء الشرقي بباب عثمان بن عفان رضي الله عنه رقم (24)، واثنتان في المصلى الغربي باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه رقم (16)، وتم افتتاحها في غرة جمادى الأولى 1416هـ/ 26 سبتمبر 1995م. وتحتوي المكتبة النسائية على جميع التصانيف الرئيسة مثل قاعة المطالعة الخاصة بالرجال، بدءًا من المعارف العامة وانتهاءً بالتاريخ حسب تصنيف ديوي المعدل. وتوجد قاعات مطالعة خاصة بالأطفال.

وتضم المكتبة التصانيف الرئيسة للكتب، ويبلغ عدد المجلدات بها (19477) مجلدًا. وتضم المكتبة قرابة تسعين ألف كتاب مطبوع، وعشرة آلاف كتابًا مخطوطًا ما بين أصول خطية ومصورات رقمية وورقية وميكروفيلم، وثلاثة آلاف دورية. ومن أقدم المخطوطات التي وجد عليها تاريخ النسخ تفسير الإمام الثعلبي المسمى (الكشف والبيان في تفسير القرآن) والذي نسخ عام 578 هـ، و(المعلم شرح صحيح مسلم) للإمام المازري، نسخ أيضًا عام 578 هـ. وهناك الكثير من المصاحف والمخطوطات النادرة، سواء من ناحية الخط، أو الزخرفة والتذهيب، أو التعليقات والحواشي. والمكتبة تعد متخصصةً في علوم الدين الإسلامي: القرآن وعلومه والتفسير والحديث والفقه...، التي تشكل ثمانين بالمئة من محتويات المكتبة.

وتضم المكتبة قسمًا للمكتبة الرقمية، وتحتوي على أجهزة حاسب آلي متصلة بشبكة خاصة محلية للمسجد النبوي، وشبكة الإنترنت، ومحمل عليها البرامج العلمية الحاسوبية، وتشمل الكتب والمخطوطات والصوتيات الرقمية التي تستعمل من قبل الباحثين. ويستفيد روادها بالبحث عن الكتب والموضوعات المختلفة المتوافرة في المكتبة، وبرنامج المكتبة الشاملة والمكتبة الإسلامية الكبرى ومواقع إسلامية على الإنترنت، ومكانها في الجهة الغربية داخل المسجد النبوي في الباب الثاني عشر بالطابق الثاني.

ويقوم قسم محدودة الاطلاع بحفظ الكتب المحدودة الاطلاع. ويضم قسم الدوريات أكثر من ثلاث آلاف دورية. ويقوم قسم الكتب النادرة بحفظ الكتب النادرة من حيث قدم تاريخ الطبع أو الزخرفة أو الأشكال والصور. وهناك ضوابط وضعت للكتاب حتى يحكم بأنه نادر.

أما قسم المجموعات الخاصة والمخطوطات، فيقع في الدور الأول والثاني من باب عثمان بن عفان رضي الله عنه نهاية التوسعة السعودية الأولى، وهو يضم خزانة المخطوطات الأصلية "كتب ومصاحف"، ومصورات ورقية وميكروفيلمية ورقمية، وأجهزة تصوير من الميكروفيلم إلى ورقي، وأجهزة حاسب آلي، وأجهزة تعقيم وصيانة المخطوطات، وطاولات لعرض نماذج من المخطوطات للزائرين، وصور ملتقطة مكبرة لنماذج بديعة من المخطوطات والمصاحف.

ويقع قسم المكتبة الصوتية في باب (17) للمسجد النبوي، ويقوم بحفظ ما يلقى في المسجد النبوي من التلاوات والدروس والخطب والصلوات من الحرمين الشريفين، وتبلغ محتوياته أكثر من مائة ألف ساعة صوتية مسجلة على أشرطة كاسيت وأقراص مدمجة ووسائط إليكترونية حديثة متعددة. كما تضم المكتبة الصوتية أكثر من مائة ألف ساعة صوتية، تشمل الدروس والمواعظ والخطب التي ألقيت بالمسجد الحرام و المسجد النبوي، وكذلك بعض المصاحف المسجلة لأئمة الحرمين الشريفين من صلاة التراويح والتهجد.

ويوجد القسم الفني بباب رقم (9) باب الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله، ويقوم بتجليد وترميم وتعقيم المخطوطات والكتب، وتصوير بعض طلبات التصوير من كتب ومخطوطات، والكتابة على الكتب المجلدة. ويشتمل القسم الفني على العديد من الأجهزة والمعدات والأدوات الحديثة الخاصة بالتجليد والترميم والتعقيم والتصوير وذلك للقيام بأي عمل لازم للكتب بأسرع وقت ممكن وبعمل متقن. وقد تم إدخال جميع فهارس الكتب بالحاسب الآلي وذلك بعمل برنامج خاص بالمكتبة يُسهل الاستعلام وسرعة البحث عن الكتاب المطلوب خدمة للباحثين.

ويضم القسم الفني أقسامًا هي: التجليد بأنواعه، والترميم لأجل ترميم المخطوطات والكتب. والطباعة الحرارية على الكتب آليًّا ويدويًّا. والتصوير والفهرسة والتصنيف والتزويد. ولكل من هذه الأقسام مهام: فقسم الفهرسة والتصنيف يقوم بتصنيف وفهرسة الكتب، وتسجيل الكتب الواردة للمكتبة في برنامج المكتبة بالحاسب الآلي. وقسم التزويد يقوم بتأمين الكتب الجديدة للمكتبة عن طريق الشراء، ومن مهامه أيضًا جلب الكتب الموقوفة على المكتبة، حيث يقوم البعض بوقف الكتب على المكتبة ونقلها إلى المكتبة في حياته أو بوصية منه بعد موته. وقسم المستودع يضم الكتب المكررة الزائدة عن حاجة رواد المكتبة، كما تحفظ به كميات الكتب التي توزع على المساجد والمكتبات العامة في أنحاء العالم. وقسم الحاسب الآلي يقوم بإدخال بطائق الكتب (الفهارس) في الحاسب بعد ما تمّ إنجاز برامج لفهرسة الكتب والمخطوطات، والدوريات، كما يتمّ به تحويل المصورات الورقية والميكروفيلمية عبر الماسح الضوئي إلى الحاسب الآلي، وكذلك أدخل وحفظ التسجيلات الصوتية والمرئية في الحاسب الآلي.

ويقوم قسم التزويد بإعداد قوائم بالكتب التي تحتاجها المكتبة، ويتم التزويد عن طريق الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي، أو عن طريق التبادل لبعض المصورات لكتب مطبوعة، أو عن طريق إهداء بعض الكتب من الأفراد أو المكتبات العامة أو الجامعات والمراكز العلمية، أو عن طريق الوقف على المكتبة. وتتعاون المكتبة مع المكتبات الأخرى في داخل المملكة مثل مكتبة الملك فهد الوطنية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، ومكتبة الملك عبد العزيز العامة بالمدينة، ومكتبة الحرم المكي، ومكتبات الجامعات في الداخل، ومن أهمها مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كما تتعاون مع مكتبات الجامعات الإسلامية في الخارج.

وهناك أقسام أخرى مثل: البحث والترجمة، ويتمّ به بحث بعض المسائل حسب الحاجة، وترجمة ما يحتاج إلى ترجمة عربية من اللغات الأخرى كالإنجليزية والفرنسية والأوردو وغيرها، والاطلاع على الكتب المهداة أو الموقوفة على المكتبة وإجازتها. وقسم الأمن والسلامة ويقوم على مراقبة القاعات وتنظيم دخول وخروج الكتب إلى الأقسام وبين القاعات. وقسم الإهداء والتبادل ويقوم بتوزيع ما يتوفر من كتب ومطويات على رواد المكتبة وغيرهم، حسب النظام المتبع، وتبادل بعض الأفلام والمصورات سواء ورقية أو على أقراص ضوئية أو وسائط متعددة. وقسم الإعارة ويقوم بتنظيم إعارة بعض الكتب الخاصة بالإعارة حسب النظام والترتيب الموضوع لذلك.

تفتح المكتبة أبوابها يوميًّا من الساعة السابعة والنصف صباحًا إلى ما بعد صلاة العشاء بما في ذلك أيام الخميس والجمعة والعطل الرسمية لعيدي الفطر والأضحى، ويتم إغلاق المكتبة فقط عند الصلوات حتى تخدم المكتبة أكبر عدد من الباحثين والزائرين، وليجد الباحث فرصة أوسع ليستفيد حسب الوقت الذي يتناسب مع ظروفه.

ويزور مكتبة المسجد النبوي الشريف أكثر من سبعين ألف زائر سنويًّا من خمس وسبعينَ دولة، وترتاد المكتبة أعداد كبيرة من طلبة العلم وزوار المسجد النبوي، من أجل تلقي العلم وأيضًا للبحوث الخاصة بالدراسات العليا، ويسمح لجميع زوار المسجد النبوي الشريف بالاستفادة من المكتبة والخدمات المقدمة فيها.

ومن أجل المحافظة على موجودات المكتبة تم توفير العديد من الأجهزة مثل :تركيب أجهزة أمان على مداخل أبواب قاعات المطالعة للرجال والنساء، وتم وضع شريط ممغنط على جميع الكتب والمخطوطات بالمكتبة لكشف أي كتاب يخرج بإصدار صوت ينبه المسئول. وأجهزة مراقبة (كاميرات) وتتم المراقبة في غرفة خاصة للاطمئنان على سلامة الكتب من العبث. وتركيب طفايات الحريق منها اليدوية ومنها الآلية عند مداخل المكتبة وسقفها. وأجهزة الإنذار ضد الحريق للتنبيه عند وجود دخان أو حرارة من الأعمال التي يتم خلالها المحافظة على سلامة الموجودات. والتعقيم الدوري لجميع الكتب والتركيز على الكتب النادرة والمخطوطات. ووضع حرس أمن عند مدخل القاعة والمخطوطات. وترميم وصيانة المخطوطات والكتب وتجليد ما يحتاج إلى تجليد، وذلك عن طريق القسم الفني بصفة مستمرة، بالإضافة إلى وجود مسئول أمن عند مداخل القاعات. وإدخال جميع المخطوطات الأصلية في الحاسب لتسهيل ا لاطلاع والتصوير للباحثين والمحافظة على الأصل، ويتم الاطلاع عليها عن طريق الحاسب الآلي، والاحتفاظ بنسخه من الأشرطة والاسطوانات الخاصة بالحاسب الآلي التي تطلب للرجوع إليها عند تلف أو فقد النسخة المستعملة.

يعمل بالمكتبة ثمانون شخصًا من موظفين، وفنين، ومستخدمين، وعمال، إضافةً إلى العاملات اللاتي يعملن بالمكتبة النسائية. ويتم توزيع العاملين على فترتين، صباحية ومسائية. وتقدم المكتبة الخدمات المتنوعة للباحثين والقراء مدة فتح المكتبة، ويقوم الموظف المختص بمساعدة الباحثين في قاعات المطالعة بما يحتاجونه من خدمات. وتبادل صور المخطوطات الأصلية والمصورات الورقية والميكروفيلمية مع الأفراد والمكتبات العامة ومكتبات الجامعات في المملكة العربية السعودية وغيرها. ونسخ تسجيلات القرآن الكريم والدروس والخطب المحفوظة في المكتبة الصوتية والملقاة في الحرمين الشريفين لمن يطلبها بعد إحضاره أوعية فارغة. وتصوير طلبات الباحثين والرواد حسب التعليمات. وتوزيع بعض النشرات والمطويات والكتب المتوافرة على رواد المكتبة.

المصادر:

1 – محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق جمال عيتاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، الجزء الثاني، ص 417.

2 – صلاح أحمد الطنوبي: "المكتبات في الإسلام"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 271، (رجب 1407هـ/ مارس 1987م)، ص 48–54.

3 –عيسى الحسن: الأندلس في ظل الإسلام تكامل البناء الحضاري، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2010)، ص 96؛ عبد الغني عبد الفتاح زهرة؛ نورة محمد عبد العزيز التويجري: تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد الأندلس، (الرياض: مكتبة الرشد، 2010)، ص 191؛ عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2012)، ص 317.

4 – محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978)، ص 82، 127.

5 – الفيكنت فيليب دي طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين، (بيروت: منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، د. ت.)، ص 146.

﴿والمكتبة تعد متخصصةً في علوم الدين الإسلامي: القرآن وعلومه والتفسير والحديث والفقه...، التي تشكل ثمانين بالمئة من محتويات المكتبة﴾

﴿تضم المكتبة التصانيف الرئيسة للكتب، ويبلغ عدد المجلدات بها (19477) مجلدًا. وتضم المكتبة قرابة تسعين ألف كتاب مطبوع، وعشرة آلاف كتابًا مخطوطا ما بين أصول خطية ومصورات رقمية وورقية وميكروفيلم، وثلاثة آلاف دورية. ومن أقدم المخطوطات التي وجد عليها تاريخ النسخ تفسير الإمام الثعلبي المسمى (الكشف والبيان في تفسير القرآن) والذي نسخ عام 578 هـ، و(المعلم شرح صحيح مسلم) للإمام المازري، نسخ أيضًا عام 578 هـ. وهناك الكثير من المصاحف والمخطوطات النادرة، سواء من ناحية الخط، أو الزخرفة والتذهيب، أو التعليقات والحواشي﴾

ألوان من الأدب العالمي والعربي

إبراهيم عبد الله الخويطر

كاتب ومفكر

من الأدب العالمي التفاؤل والتشاؤم

(اليوم لم يختتم بعد والسوق التي على شاطئ النهر لاتزال، ولقد خفت أن يكون يومي قد تبدد وآخر دراهمي قد ضاع، ولكن لا لا يا أخي، ما زلت أملك شيئًا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء.

الآن انتهى البيع والشراء، لقد جمعت حصيلتي من الطرفين، والآن حان وقت عودتي إلى البيت.

ولكن أيها الحارس ، أفتطلب ضريبتك؟

لا تخف يا أخي، لأني ما زلت أملك شيئًا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء.

إن سكون الريح ينذر بالعاصفة.

❊ ❊ ❊

وإن السحب المتجهمة في الغرب لا تبشر بخير.

والماء ساكن ينتظر الريح.

أما أنا فأهرول لأعبر النهر قبل أن يدركني الليل.

ولكن يا صاحب المعبر أفتريد أن تطلب أجرك؟

أجل يا أخي إني ما زلت أملك شيئًا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء.

❊ ❊ ❊

وفي ظلال الشجرة على جانب الطريق تربع شحاذ.

وا أسفاه ،إنه يحدق في وجهي وفي عينيه رجاء وحياء.

إني في ظنه غني بما ربحت في يومي.

أجل، يا أخي، إني ما زلت أملك شيئًا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء

❊ ❊ ❊

لقد اشتد ظلام الليل، وأقفر الطريق، وتألق الحباحب بين أوراق الشجر

من عساك تكون يا من تتبعني في خطوات متلصصة صامتة

آه، لقد عرفت، إنك تريد أن تسرق مني كل أرباحي

لن أخيب ظنك !

لأني ما زلت أملك شيئًا، لأن حظي لم يسلبني كل شيء.

❊ ❊ ❊

وصلت إلى المنزل عند منتصف الليل بيدين

وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت، وفي عينيك الرغبة

وكعصفورة وجلة طرت إلى صدري، يدفعك حب تواق.

آه يا إلهي، إن شيئًا كثيرًا ما يزال باقيًا معي، لأن حظي لم يخدعني ويسلبني كل شيء.

طاغور البستان

(التشاؤم)

أخالك تحفر عند قبري يا حبيبي، تغرس على حوافيه أشجار السذاب

كلا ! حبيبك ذهب البارحة ليخطب كريمة من أجمل كرائم الثراء! وهو يقول

في نفسه: ماذا عليها من ضير أن أنقض لها عهدي في الحياة !؟

إذن من ذلك الذي يحفر ناحية القبر؟ أقاربي الأعزاء ؟

لا بنية! إنهم يجلسون هناك ويقولون: ماذا يجدي؟ أي نفع لهذه الأشجار والأزهار.

إن روحها لن يفلت من براثن القضاء خلال ذلك التراب المركوم!

ولكني أسمع حافرًا يحفر هناك من ذا عسى أن يكون! أهو عدوتي اللئيمة الرعناء؟

لا، إنها حين علمت أنك عبرت الباب الذي لا مفر منه، ضنت عليك بالعداوة، ولم تجدك أهلا للكره والبغضاء، فما تبالي اليوم في أي مرقد ترقدين!

إذن من يكون ذلك الحافر على قبري؟ فقد أعياني الظن ، وأقرت بالإعياء !

أواه إنه أنا يا سيدتي الودود! أنا كلبك الصغير، أعيش بقربك وأرجو ألا يزعجك ذهابي ومآبي في هذا الجوار !

آه نعم ! أنت الذي تحفر على قبري. عجبًا كيف غفلت، عنك، ونسيت أن قلبًا واحدًا وفيًا قد تركته بين تلك القلوب الخواء! وأي عاطفة لعمرك في قلوب الناس تعدل عاطفة الولاء في فؤاد الكلب الأمين؟

سيدتي إنني أحفر عندما أحفر لأدفن عظمة أعود إليها ساعة الجوع في هذا الطريق.

فلا تعتبي على إزعاجك، فقد نسيت أنك في ذلك المكان تنامين نومك الأخير !!!

النقد الأدبي-قطب

نموذج التشاؤم لأعرابي (المعري)

صاح! هذه قبورنا

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي، إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على غصنها الميـّادِ

إيليا أبو ماضي

قال السماء كئيبة وتجهما

قال: العدى حولي علت صيحاتهم
أأسر والأعداء حولي في الحمى ؟
قلت: ابتسم .. لم يطلبوا بذمهم
لو لم تكن منهم أجل وأعظما
قال : المواسم قد بدت أعلامها
وتعرضت لي في الملابس والدمى
وعلي للأحباب فرض لازم
لكن كفي ليس تملك درهما
قلت: ابتسم يكفيك أنك لم تزل
حيًا ولست من الأحبة معدما!
قال: الليالى جرعتني علقما
قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مترنما
طرح الكآبة جانبا وترنما
أتراك تغنم بالتبرم درهما
أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما ؟
ياصاح، لا خطر على شفتيك أن
تتثلما، والوجه أن يتحطما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى
متلاطم، ولذا أحب الأنجما
قال: البشاشة ليس تسعد كاؤنا
يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت : ابتسم ما دام بينك والردى
شبر، فإنك بعد لن تتبسما

(نموذج آخر لأبي ماضي كن بلسما)

كن بلسماً إن صار دهرك أرقما
وحلاوة إن صار غيرك علقما
إن الحياة حبتك كلَّ كنوزها
لا تبخلنَّ على الحياة ببعض ما
أحسنْ وإن لم تجزَ حتى بالثنا
أيَّ الجزاء الغيثُ يبغي إن همى ؟
مَنْ ذا يكافئُ زهرةً فواحةً ؟
أو من يثيبُ البلبل المترنما ؟
عُدَّ الكرامَ المحسنينَ وقسْهُمُ
بهما تجدْ هذينِ منهم أكرما
ياصاحِ خُذ علم المحبة عنهما
إني وجدتُ الحبَّ علما قيما
لو لم تَفُحْ هذي، وهذا ما شدا،
عاشتْ مذممةً وعاش مذمما
فاعمل لإسعاد السّوى وهنائهم
إن شئت تسعد في الحياة وتنعما

❊ ❊ ❊

أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا
لولا الشعور الناس كانوا كالدمى
أحبب فيغدو الكوخ قصرًا نيرًا
وابغض فيمسي الكون سجنا مظلما
ما الكأس لولا الخمر غير زجاجة
والمرءُ لولا الحب إلا أعظُما
كرهَ الدجى فاسودَّ إلا شهبُهُ
بقيتْ لتضحك منه كيف تجهّما
لو تعشق البيداءُ أصبحَ رملُها
زهراً، وصارَ سرابُها الخدّاع ما
لو لم يكن في الأرض إلا مبغضٌ
لتبرمتْ بوجوده وتبرّمـا
لاح الجمالُ لذي نُهى فأحبه
ورآه ذو جهلٍ فظنّ ورجما
لا تطلبنّ محبةً من جاهلٍ
المرءُ ليس يُحَبُّ حتى يُفهما
وارفقْ بأبناء الغباء كأنهم
مرضى، فإنّ الجهل شيءٌ كالعمى
والهُ بوردِ الروضِ عن أشواكه
وانسَ العقاربَ إن رأيت الأنجما

❊ ❊ ❊

يا من أتانا بالسلام مبشراً
هشّ الحمى لما دخلتَ إلى الحمى
وصفوكَ بالتقوى وقالوا جهبذٌ
علامةٌ، ولقد وجدتك مثلما
لفظٌ أرقّ من النسيم إذا سرى
سَحَراً، وحلوٌ كالكرى إن هوّما
وإذا نطقتَ ففي الجوارح نشوةٌ
هي نشوةُ الروح ارتوتْ بعدَ الظما
وإذا كتبتَ ففي الطروسِ حدائقٌ
وشَى حواشيها اليراعُ ونمنما
وإذا وقفتَ على المنابر أوشكتْ
أخشابها للزهو أن تتكلما
إن كنت قد أخطأكَ سربال الغنَى
عاش ابنُ مريم ليس يملك درهما
وأحبّ حتى من أحب هلاكه
وأعان حتى من أساء وأجرما

(ولأننا نعيش أيامًا أقرب إلى التشاؤم فنحن بحاجة إلى فلسفة التفاؤل)

(فلسفة الحياة - إيليا أبو ماضي)

أيّهذا الشّاكي وما بك داء
كيف تغدو إذا غدوت عليلا؟
إن شرّ الجناة في الأرض نفس
تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظن الحياة عبئًا ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال
لا يرى في الوجود شيئًا جميلا
ليس أشقى ممن يرى العيش مرا
ويظن اللذات فيه فضولا
أحكم الناس في الحياة أناس
عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظلّ رأسك همّ
قصر البحث فيه كيلا يطولا
أنت للأرض أولاً وأخيرًا
كنت ملكا أو كنت عبدًا ذليلا
لا خلود تحت السماء لحي
فلماذا تراود المستحيلا؟
كل نجم إلى الأفول ولكن
آفة النجم أن يخاف الأفولا
غاية الورد في الرياض ذبول
كن حكيمًا واسبق إليه الذبولا
وإذا ما وجدت في الأرض ظلا
فتفيأ به إلى أن يحولا
وتوقع إذا السماء اكفهرّت
مطرًا في السهول يحيي السهولا
قل لقوم يستنزفون المآقي
هل شفيتم مع البكاء عليلا
ما أتينا إلى الحياة لنشقى
فأريحوا أهل العقول العقولا
كل من يجمع الهموم عليه
أخذته الهموم أخذًا وبيلا

(أعرابي مدمن باع صوفًا واشترى فيه خمرًا فلامته زوجيه)

(خروف من عرائس وشياطين للعقاد)

تزوجت اثنتين لفرط جهلي
بما يشقى بـــه زوج اثنتين
فقلت: أصير بينهما خروفًا
ينعـم بين أكـرم نعجتـين
فصرت كنعجة تضحى وتمسي
تـداول بين أكـرم نعجتين
رضى هذي يهج سخط هذي
فما أعرى من إحدى السخطتين
وألقى في المعيشة كل ضـر
كذاك الضر بين الضرتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى
عتاب دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريما
من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا فإن لم تستطعه
فضربا في عراض الجحفلين

❊ ❊ ❊

(أعرابي سكير باع صوفًا واشترى بثمنه خمرًا فلامته امرأته) قال:

غضبت علي لأن شربت بصوف
ولئن غضبت لأشربن بخروف !
ولئن غضبت لأشربن بنعجة
دهساء مالئة الإناء سحوف
ولئن غضبت لأشربن بناقة
كوماء ناوية العظام صفوف
ولئن غضبت لأشربن بسابح
نهد أشم المنكبين منيف
ولئن غضبت لأشربن بواحدي
ولأجعلن الصبر عنه حليفي

عرائس وشياطين- العقاد - كرم أعرابي (الحطيئة)

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرمِلٍ
ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخي جفوة فيه من الإنس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعما
تفرد في شعب، عجوزًا إزاءها
ثلاثة أشباح. . تخالهما. . بهما
حفاة عراة، ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحا وسط الظلام، فراعه
فلما بدا شبحا تشمر . . واهتما
فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبت اذبحني ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم على الذي طرى
يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلا، ثم أحجم برهة
وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
وقال: أيا رباه ضيفي لا قرى
بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما
فبيناهم، عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
ظماء تريد الماء فانساب نحوها
على أنه إلى دمها أظمأ
فأمهلها حتى تروت عطاشها
فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرت نحوصًا، ذات جحش فتية
قد اكتنزت لحمًا وقد طبقت شحما
فيا بشره إذ جرها نحو أهله
ويابشرهم لما رأوا كلمها يدمى
فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم
فلم يغرموا غرما، وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أبًا
لضيفهم أبا والأم من بشرها أما

(المتنبي مع سيف الدولة عتاب ووداع مر)

وَاحَرَّ قَلباهُ ممن قَلبهُ شَبِمُ
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي أكتم حبًا قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته
فليت أنا، بقدر الحب نقتسم نعم
قد زرته، وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم
وكان أحسن ما في الأحسن الشيم
فوت العدو، الذي يممته، ظفر
في طيه أسف في طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف، واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع البهم
عليك هزمهم في كل معترك
وما عليك بهم عار إذا انهزموا
يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام، وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة
إن تحسب الشحم في من شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده، الأنوار والظلم
سيعلم الجمع، ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعي. به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مده في جهله ضحكي
حتى أتته يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت، في الفلوات الوحش منفردا
حتى تعجب مني القورُ والأكم
يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا، لو رعيتم ذاك، معرفة
إن المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الديم
لئن تركن ضميرًا، عن ميامننا
ليحدثن إلى من ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به!
وشر ما يكسب الإنسان مايصم
وشر ما قنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم
هذا عتابك إلا أنه مقة
قد ضمن الدر إلا أنه كلم

لك مني تحيتي وسلامي شاعر الوجد والجوى والغرام
شاعر الياسمين فاح أريجا شاعر البحر والندى والغمام
شاعر الحرب إذ توافي خطوب شاعر الحب حين وقتِ السلام
لست أدري من أين أبدأ بوحي باشتياقي ولوعتي واحترامي؟!
أم بتقديم عذرنا وأسانا حين كلنا إليك كل اتهام
حين قلنا (نزار) زير نساء ورهين لـ (كيفه) والهيام
أي شأن له بأحلام شعب وجهاد لنيل حق مرام؟!
أي شأن له بتحقيق حلم عربي وعزة واحترام؟!
حين قلنا أفسدت فينا شبابا ناصع الفكر طاهر الأحلام
ولعمري فلم يضرهم سوانا باختلاف وفتنة واضطرام
راعنا أن رميت أقلام ورد وتحولت كاتبًا بالحسام
هالنا أن طرحت وردة حب وتخليت عن كؤوس المدام
وذهلنا إذ اعتزلت الندامى وتوجهت نحونا باهتمام

❊ ❊ ❊

شاعر النبل والمروءة حقا شاعر الود والصفا والوئام
ما قدرناك حق قدرك لما كنت فينا تقودنا للأمام
ما عرفناك يوم كنت لدينا تضمِد الجرح رغبة في التئام
بل عرفناك حين جدت أمور وتوالت مصائبٌ كالسهام
كنت نبهتنا إليها ولكنا خشينا مغبة الإقدام
كنت أنذرتنا كثيرًا كثيرًا من شتات وفرقة وانقسام
وأنرت السبيل للمجد لكنا اتجهنا إلى دروب الظلام
كم تنبأت للشعوب بقهر إن تسلم قيادها للطغام
صدق الحدس يا نزار فصرنا في يديهم كصبية أيتام
قد تولوا قيادنا فاستحلنا لعبة في اليدين والأقدام

❊ ❊ ❊

شاعر الثأر للكرامة ممن سلبوها في غفلة وانهزام
داعي العرب للتحرر من ربقة كل المستعمرين اللئام
أو تدري بما فعلناه لما غبت عنا في هذه الأعوام؟!
أوتدري بأن مسرى النبي لم نعده إلى حمى الإسلام؟!
بل أضعنا عراقنا ويح قلبي وقريبًا نضيع أرض الشآم
وقطار التطبيع ما زال يمضي بيننا والعدا بكل انتظام
وقطار التركيع ما زال يسري بسكون .. وهدأة .. وسلام

❊ ❊ ❊

يا أمير البيان شعرًا ونثرًا ودليل الورى لفن الكلام
كنت لامست كل جرح عميق حين أدركت ما بنا من سقام
حين أدركت أننا ما أخذنا من فنون الشعوب غير الحطام
يا أمير القريض عفوًا فإنا قد سئمنا معيشة الأنعام
عُد إلينا تُعد لنا يا عزيزي ما افتقدناه من حياة الكرام

يا أمير البيان..

(تحية واعتذار إلى الراحل نزار قباني)

شعر

سعد عبد الله الغريبي

قيثارة الحزن وشهرزاد الغزل..
إدريس جمّاع

بقلم: عماد أحمد العالم

@emadelalem

يُقال: ومن الحب ما قتل... ولست منكرًا لذلك، فأنا الذي استشهدت وكتبت من قبل كما آخرين عن قيس الذي وصفوه بالمجنون وبحبيبته ابنة عمه ليلى العامرية التي أدمى هواها قلبه؛ لكن الغريب وقد يكون النادر مستحيل الحدوث هو أن يقضي الشخص نحبه من فرط هواه بالجمال وغرامه به وتعلقه دون أن يكون لأحدٍ هي أُنثى بذاتها، سلبت لبه وتملكت عقله، فانشغل عن دنياه وواقعه وهام في ملكوت الحب اللامتناهي حتى فقد عقله، وأمسى وحيدًا ملكًا وشعبًا في مملكة جنونه التي أطلقوها عليه واختارها بنفسه ولم يجد عازًا في ذلك، أو رغبةً في الخروج منها، بعد أن أصبح الجمال هاجسه الذي لا يُمكن أن يُشفى منه.

هو ابن النيل الجواد وشاعر السودان الذي قضى فاقدًا لعقله بعد سنوات من معاناته وأمراضه النفسية التي حجرت على جسده، لكنها لم تحجر على جود لسانه، الذي قرض به شعرًا لووزن بما فاضت به قريحة الشعراء المعاصرين في الهوى والجمال والغزل لوزنهم ورجحت كفته عليهم!

إدريس جماع مدرس اللغة العربية الذي ترك حبيبةً جارة له في السودان ورحل أربعينيات القرن الماضي صوب مصر فحصل منها على ليسانس اللغة العربية وعاد ليجد المحبوبة وقد تزوجت قريبًا لها، فجن جنونه وهام في شوارع الخرطوم يرثي حظًا لم يكرمه بعد أن فقد وصال من منى نفسه بأن تكون يومًا شريكةً لحياته. كان رحمه الله وكما روي عنه هائمًا في سوق الخرطوم كالباحث عن شيءٍ فقده وغير مكترث لما حوله، فناشد العديد من الأدباء والمفكرين والمثقفين حكومة الرئيس السوداني إبراهيم عبود التي عُرف عنها اهتمامها بالأدب والفن علاجه في الخارج فاستجابت وأرسلته إلى لبنان التي عاد منها للسودان مرة أخرى دون أن تتحسن حالته، حتى قيل إنه كان يُرى راقدًا على خطوط السكة الحديدية، ليقوم منتفضًا كمن به مس عند اقتراب القطار. بقي حاله على ما هو عليه حتى ضنى جسده ونحل وتوفي بشعره العام 1980.

عُرف برهف حسه وببلاغة شعره وبسمو معانيه، التي كانت تخرج مسرعةً فتصطف كلماتها بإبداع قارضها كسوار من لؤلؤ أضنى بحاره حتى جمعه بتفانٍ وعزيمة، بأن يخرج في كل غطسة بلآلئ متناسقة براقة، حال جمعها وصقلها تغدو حلم أميرة يزدان بها معصمها حال لبسه!

من منا في لحظات قنوطه وحسرته لرداءة حظه لم ينشد:

إن حظي كدقيق فوق شوكٍ نثروه
ثم قالوا لِحُفاةٍ يومَ ريحٍ اجمعوه
عَظِم الأمرُ عليهم ثم قالوا اتركوه
أن من أشقاهُ ربي كيف أنتم تُسعدوه

هي كلمات يرثي بها الشاعر إدريس نفسه، وإن كانت اختلف في مصدرها فتسبها البعض للشاعر السوداني محمد عبد الحي وآخرون أرجعوها لمحمد محجوب؛ لكن المنطق يشير إلى أن معانيها جسدّت نمط تفكر جمّاع وكرست عمق إيمانه بالله سبحانه وتعالى وبقوته التي لا تجاريها أو تقترب منها قوة البشر.

من أكثر الروايات التي تم تداولها عنه وأثرى الغزل والجمال بها بقصيدة (أنت السماء)؛ ما روي عن موقف حدث معه وهو في المطار مستهلاً مشواره العلاجي في الخارج، حيث رأى عروسًا تجلس بجانب عريسها في صالة

الانتظار، فبهره فرط جمالها، فلم يزح ناظريه عنها برغم ما أثاره ذاك الصفون بالمرأة من حفيظة زوجها الذي حاول أن يبعدها عنه، فقال أحد أروع قصائده التي تغنى بها الفنان الراحل سيد خليفة، وكأنه يخاطب فيها زوجها المحتج والممتعظ من نظراته:

أعلى الجمال تغار منا ماذا عليك إذا نظرنا
هي نظرة تنسى الوقار وتسعد الروح المعنّى
دنياي أنت وفرحتي ومنى الفؤاد إذا تمنّى
أنتَ السماءُ بدتْ لنا واستعصمتْ بالبعدِ عنا
هلاَّ رحمتَ متيمًا عصفت به الأشواقِ وهنا
وهفت به الذكرى فطاف مع الدجى مغنى فمغنى
هزته منك محاسن غنى بها لمّا تغنَّى
يا شعلةً طافتْ خواطرنا حَوَالَيْها وطفنا
أنست فيكَ قداسةً ولمستُ إشراقًا وفنًا
ونظُرتُ في عينيكِ آفاقًا وأسرارًا ومعنى
كلّمْ عهودًا في الصبا وأسألْ عهودًا كيف كُنّا
كمْ باللقا سمحتْ لنا كمْ بالطهارةِ ظللتنا
ذهبَ الصبا بعُهودِهِ ليتَ الطفُولَةَ عادتنا

في قصة أخرى اشتهرت عنه ونتج عنها واحدة من قصائده العذبة؛ قيل عنه في أثناء تواجده في مستشفىً فرنسي للعلاج أنه أولع بعيني ممرضته التي تتولى علاجه وأسرتْه بجمالها، فلم يترك النظر إليها لحظة حتى خافت منه فاشتكت لمدير المستشفى، الذي نصحها بأن تضع نظارة سوداء حال تواجدها معه، ليتفاجأ جمّاع بما فعلت فقال فيها:

السيف في غمده لا تُخشى بواتره
وسيف عينيك في الحالتين بتارا!

فتمت ترجمة ما قال للمرضة التي بكت من حسنه، وهو الذي صنف فيما بعد كأبلغ بيت شعر غزلي في العصر الحديث!

كتب عنه الدكتور عبده بدوي في كتابه الشعر الحديث في السودان «إن أهم ما يميز الشاعر إدريس جمّاع هو إحساسه الدافق بالإنسانية وشعوره بالناس من حوله»، فيما وصف الدكتور تاج السر الحسن المُشرف على طباعة ديوانه الوحيد (لحظة باقية) وفيها جمعت قصائده التي لم يتسن نشرها بسبب مرضه عدا عن عديدة فقدت بسبب كتابته لها وتمزيقها أو كتابتها على الجدران؛ شعره بالذي يقع في إطار التراثي والديواني العربي، كونه من مدرسة العربية الابتدائية ومن رواد التجديد الشعري ومن شعراء مدرسة الديوان على وجه الخصوص ضمن مجموعة عبدالرحمن شكري وعباس العقاد وإبراهيم المازني.

أما هذه الأبيات للشاعر إدريس جماع فيمكن أن تقرأ رأسيًا وأفقيًا بنفس المعنى:

ألوم حبيبى وهذا محال
حبيبى أفيك الكلام يقال
وهذا الكلام غداة الجمال
محال يقال الجمال محال

سيبقى شعر إدريس جماع خالدًا وهو الذي يعد من أرق من كتب الشعر الممزوج بالبؤس والمعاناة والألم والحرمان الذي طال قائله، لكنه ومع ذلك خرج لنا بقصائد عذبة يفيض منها عبق الإنسانية والمشاعر المرهفة والإحساس الصادق الذي تغنى بالجمال وقدسه ودعى للوطنية ومجدها وساندها في أوقات شهدت ثورات عربية كان من أشد المتحمسين لها وعلى رأسها القضية الفلسطينية والجزائر ومصر وقضايا التحرر في العالم أجمع، كما تغنى بأفريقيا ونادى لوحدة الشعوب ونبذ العنف وللسلام والمحبة ومجد وطنه وعشقه، ومن بعض ما قال فيه بإحدى قصائده التي تم إضافتها للمناهج الدراسية ويقول فيها:

سأمشى رافعًا رأسي بأرض النبل والطهر
ومن تقديس أوطاني وحب في دمى يجري
ومن ذكرى كفاح الأمس من أيامه الغر
سأجعل للعلا زادي وأقضى رحلة العمر
هنا صوت يناديني نعم لبيك أوطاني
دمي عزمي وصدري كله أضواء إيماني
سأرفع راية المجد وأبني خير بنياني
هنا صوت يناديني تقدم أنت سوداني

من قصائده الغزلية الأخرى قرأنا له:

في ربيع الحب كنا نتساقى ونغني
نتناجى ونناجي الطير من غصن لغصن
إننا طيفان في حلم سماوي سرينا
واعتصرنا نشوة العمر ولكن ما ارتوينا
إنه الحب فلا تسأل ولا تعتب علينا
كانت الجنة مأوانا فضاعت من يدينا
أطلقت روحي من الأشجان ما كان سجينا
أنا ذوبت فؤادي لك لحنًا وأنينا
فارحم العود إذا غنوا به لحنًا حزينا
ليس لي غير ابتساماتك من زاد وخمر
بسمة منك تشع النور في ظلمات دهري
وتعيد الماء والأزهار في صحراء عمري

إدريس جمّاع

«هام في شوارع الخرطوم يرثي حظًا لم يكرمه بعد أن فقد وصال من منى نفسه بأن تكون يومًا شريكةً لحياته. كان رحمه الله وكما روي عنه هائمًا في سوق الخرطوم كالباحث عن شيءٍ فقده وغير مكترث لما حوله»